مجتمعات محلّية تساعد نفسها بنفسها

بقلم: يوشيو ماتسوكي

في أعقاب حادث تشيرنوبيل، فقدَ الناس الذين يعيشون في المناطق المتأثرة حوافز التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

وبعد انقضاء أكثر من عقدين من الزمن على الحادث، بدأوا الآن رويداً رويداً بأخذ زمام التحكّم بحياتهم مجدّداً.

يُقدّر أن عدد الأُناس في أوكرانيا الذين تأثّروا مباشرةً بحادث تشيرنوبيل في عام ١٩٨٦ يبلغ زهاء ٢,٦ مليون نسمة فيما مجموعه ٢,٢٩٣ مستوطنة. وهذه المجتمعات المحلية، التي كانت قد تفكّكت من قبلُ ثم أُعيد توطينها سريعاً بعد الحادث، تأثّرت إضافةً إلى ذلك بالقيود على الأنشطة الاقتصادية المفروضة على السكان الذين يعيشون في المناطق الملوَّثة. وعلاوة على ذلك، أدّت في نهاية المطاف المعونةُ والإعانات الداعمة الحكومية، والتي سرعان ما أصبحت عديمة الكفاية بسبب وطأة تأثير التضخّم المالي، إلى استفحال اللامبالاة وأنماط من السلوك السلبي لدى السكان.

وشملت التأثيرات الإجمالية على مستوى معيشة السكان افتقاراً مريعاً إلى المعدّات الطبية الفعّالة، وهبوطاً فادحاً في مستويات تعليم الأطفال والشباب، وتسارعاً في تدهور البُنى التحتية، مثل شبكات الإمداد بالمياه ونظم مجاري الصرف الصحي؛ وكانت لها وطأة شديدة على السكان.

ومنذ مطلع التسعينات من القرن الماضي أخذ يُقدَّم الدعم الثنائي والمتعدّد الأطراف، الحكومي وغير الحكومي، إلى أوكرانيا لكي تواجه أعباء ما بعد حادث تشيرنوبيل. وعلى حين كان يغلب على الدعم في البدء التركيز على المعونة الإنسانية، أصبح الاتجاه في الآونة الأخيرة يميل إلى التركيز على التنمية.

ثم في عام ٢٠٠٢، صدر تقرير عنوانه: الآثار الإنسانية الناجمة عن حادث تشيرنوبيل النووي – استراتيجية للإنعاش، وذلك بالاشتراك بين برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (اليونديب) ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف)، وأُنجز بدعم من مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية ومنظمة الصحة العالمية. وقد بيّن التقريرُ الحاجةَ إلى نقلة نوعيّة من نهج المعونة الإنسانية إلى نهج يُعنى بالتنمية. ودعمت اتّباع هذا النهج مشاهداتُ الرصد العلمي التي بيّنت أيضاً أن حادث تشيرنوبيل كان 'حدثاً منخفض الجرعة' بالنسبة إلى أكثرية الناس في

أنواع المشاريع المموَّلة بالاشتراك بين برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وبرنامج الإنعاش والتنمية الخاص بتشيرنوبيل

المشروع	عدد المشاريع	الميزانية الإجمالية (بالدولار الأمريكي)	التمويل المقدَّم من برنامج الإنعاش والتنمية الخاص بتشيرنوبيل (بالدولار الأمريكي)
مراكز مجتمعية محلية للشباب	٤٠	٦٨١,٩٢٤	٢٧٨,٣٣٥
تحسين العيادات الطبية المحلية	٤١	٧٩٩,٦١٦	٣٠١,٣٠٧
إصلاح شبكات الإمداد بالمياه	٣٤	٦١٢,٧٥٤	٢١٣,٧٩٤
إصلاح المدارس	٣٤	٨٠٢,٥٧٤	٢٦٣,٨٩٦
مشاريع أخرى *	٤١	١,٠٤٦,٨٢٢	٣٤٧,٨١٣
المجموع	١٩٠	٣,٩٤٣,٦٩١	١,٤٠٥,١٤٧

* إصلاح مستشفى (٢)، إصلاح روضة أطفال (٥)، إصلاح شبكة مجاري صرف صحي (٢)، إعادة بناء سوق (٤)، إنشاء مركز خدمات (حلاقة شعر وتزيين، وخياطة ملابس، إلخ) (٣)، إصلاح شبكة إمداد بالغاز (٣)، مشروع مواقع شبكية (٨)، تنظيف خزّان مياه خاص بمركز أنشطة ترويحية (١)، إصلاح مركز لتربية المواشي (٢)، مركز للرياضة والنقاهة الصحية (١)، تطوير حديقة عامة في مجتمع محلي (١)، إصلاح جسر للمشاة (١)، إصلاح حمّام عمومي (١)، إصلاح مركز ترويحي للأطفال (٢)، إصلاح إنارة شوارع (١)، إصلاح شبكة تدفئة لمركز اجتماعي (١)، مركز لإدارة تصريف نفايات صلبة (٢)، إنشاء مركز موارد (١).

الرقم الوارد بين قوسين يبيّن عدد المشاريع.

المصدر: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/برنامج الإنعاش والتنمية الخاص بتشيرنوبيل.

المنطقة التي اعتُبرت منطقة ملوَّثة، وأن يستطاع معظم الناس هنالك أن يعيشوا بأمان في أماكن إقامتهم من دون أيّ قيود تُفرَض عليهم. ثم أكّد هذه الملاحظة كذلك المشاركون في منتدى الأمم المتحدة الخاص بتشيرنوبيل في الفترة بين عامي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦.

وفي نهاية عام ٢٠٠٢، عكف كل من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وحكومة أوكرانيا على برنامج الإنعاش والتنمية المشترك الخاص بتشيرنوبيل، الذي ركّز على المبادرات الثلاث الرئيسية التي تستهدف السكان المحليين:

- **تنمية حالة الاعتماد على الذات والإحساس بالكرامة؛**
- **تكوين مصادر للرزق وإتاحة الفرص الاقتصادية؛**
- **و حماية الناس المهدّدين في حياتهم في المناطق الملوَّثة.**

وكانت الاستراتيجية التي تقوم عليها هذه المبادرات تتمحور حول تنمية المجتمعات المحلية، بحيث لا تتوخّى التنمية الاقتصادية فحسبُ، بل تُعنى أيضاً بالتصدّي للفقر، وكذلك تنمية الثقة والقدرة على التفكير النقدي. وكانت إحدى محصّلات النتائج المنشودة من الخطة الاستراتيجية أن يأخذ أعضاء المجتمعات المحلية زمام التحكّم بمسارات حياتهم مجدّداً.

وقدِّم تمويل إضافي من كلٍ من الوكالة الكندية للتنمية الدولية والوكالة السويسرية للتنمية والتعاون وحكومة اليابان، من خلال قنوات صندوق الأمم المتحدة الاستئماني للأمن البشري وبرنامج متطوّعي الأمم المتحدة ومكتب تنسيق الشؤون الإنسانية التابع للأمانة العامة للأمم المتحدة.

وقد اضطلع البرنامج الخاص بتشيرنوبيل المشترك بين برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وحكومة أوكرانيا بتنفيذ مشاريع تنموية في سبع عشرة منطقة إدارية في الأقاليم الأربعة التي تُعتبَر أشدّ الأقاليم تلوُّثاً في أوكرانيا – تشيرنيجيفسكا وبريفنينسكا وكييفسكا وزهيتوميرسكا. ومن خلال هذه الأنشطة، عملت هيئة البرنامج المشترك المذكور على إنشاء ٢٧٩ منظمة مجتمعية محلية في ١٩٢ مستوطنة، تضمّ في إطارها العضوي ما مجموعه أكثر من ٢٠,٠٠٠ شخص.

وعمدت كل مؤسسة مجتمعية محلية إلى تصميم خطة عمل خاصة بها، شملت إعادة بناء عدد كبير من المرافق الطبية والمدارس وشبكات الإمداد بالمياه ونظم مجاري الصرف الصحي وشبكات التدفئة. ثم في وقت لاحق، تقدّمت المنظمات المجتمعية المحلية بطلبات التماساً للحصول على الأموال اللازمة، وتلقّتها من البرنامج المشترك والحكومات المحلية ومنشآت الأعمال التجارية المحلية، وكذلك من حكومات وهيئات أجنبية – برنامج الصندوق الياباني لِمَنَح المساعدات لمشاريع الأمن البشري على مستوى القاعدة الشعبية. وأثناء الفترة بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٧، قدّم البرنامج المشترك الدعم المالي لصالح ١٩٠ مشروعاً مجتمعياً محلياً. وبلغت الميزانية الإجمالية

للمشاريع المجتمعية المحلية ما يربو على ٣,٤ ملايين دولار، قدِّم ما نسبته ٣٠ في المائة من البرنامج المشترك نفسه.

وقد يجادل أُناسٌ بأن بعض المشاكل التي تواجه المجتمعات المحلية ليست متعلقة بعواقب حادث تشيرنوبيل؛ بل إن البعض قد يقولون إن هنالك مجتمعات محلية في مناطق أخرى من أوكرانيا تواجهها المشاكل نفسها. غير أن هنالك أدلّة تثبت أن الناس الذين قُدِّمت لهم مستوطنات طوعية لم يكن لديهم دوافع تحثّهم على تحسين البُنى التحتية في بيئات المجتمعات المحلية التي نُقلوا لتوطينهم فيها. ولذلك فإن إعادة تأهيل الأقاليم المتأثّرة بالحادث ينبغي أن تُوجَّه نحو توفير الخدمات الرئيسية، مثلاً في مجالات الطب والإمداد بالمياه والمدارس.

والجدول الوارد في المقالة يبيّن أنواع المشاريع التي نفّذتها المجتمعات المحلية ودعمها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وبرنامج الإنعاش والتنمية الخاصة بتشيرنوبيل بالاشتراك معاً.

مثال قرية ليستفين

تقع قرية ليستفين على بُعد ١٢٠ كم إلى الغرب من تشيرنوبيل، و١٨٠ كم في الشمال الغربي من كييف، و٤٠ كم غربي وسط مقاطعة أوفروتش في إقليم زيتومير. وتُصنّف هذه القرية في فئة المنطقة الثالثة من مناطق التلوّث الإشعاعي – أي منطقة إخلاء طوعي: وجميع أولئك الذين اختاروا نقلهم إلى مكان آخر وُفِّرت لهم شُقق سكنية جديدة في بلدة أخرى.

يبلغ عدد سكان القرية زهاء ١,٦٠٠ شخص، منهم ٢٠٠ طفل. وأثناء التسعينات من القرن الماضي، تدهورت البُنية التحتية في القرية، والتي تشمل مدرسة ومنشأة زراعية ومكتب بريد وروضة أطفال ومركزاً ثقافياً، وذلك بسبب الافتقار إلى الأموال اللازمة. وكان سكان القرية يعانون أيضاً من ازدياد معدّلات انتشار الأمراض وحالات الوفاة، وكذلك تزايد الهجرة. وقد انخفض أيضاً الإنتاج الزراعي، الذي كان مصدر الدخل الرئيسي للقرويين.

في أيار/مايو ٢٠٠٣، باشر المقيمون في القرية العملَ بتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وبرنامج الإنعاش والتنمية الخاصة بتشيرنوبيل المشتركين معاً. وتمّ إنشاء منظمة مجتمعية محلية، واستُهلّ أيضاً المشروع الأول «إعادة بناء بانيا (الساونا أيْ الحمَّام)». وقد أدّى المشروع إلى استحداث وظائف جديدة، وإلى تحسين الأوضاع الصحية وظروف النظافة الصحية العامة في القرية. واستمرت هذه العملية حتى إعادة بناء العيادة الطبية المحلية. وعمل المجتمع المحلي على تجديد بناء المرافق، وفي الوقت نفسه قدّم البرنامج المشترك المعدّات الطبية. وافتُتح أيضاً مكتب للعلاج الفيزيائي، ممّا أدّى إلى تحسين الخدمات الطبية.

وبعد إنجاز هذين المشروعين النموذجيين، أُنشئت عدّة مؤسسات مجتمعية محلية أخرى في القرية من أجل القيام بمشاريع مختلفة. وفي إطار أحد تلك المشاريع، تمّ إنشاء مركز للشباب بواسطة المنظمة المجتمعية «الشباب». وقد تلقّى المشروع الدعم من السلطات المحلية. وعثرت المنظمة الشبابية على مرفق لها، وحشدت الموارد الخاصة بها، وتقدّمت أيضاً بطلب للحصول على منحة من البرنامج المشترك. وانضمّ أكثر من سبعين شخصاً إلى فرقة من أجل ترميم وتجديد بناء المرفق، والمشاركة في أعمال الطلاء بالجصّ والتبييض والدهان لترميم الجدران. وكذلك تركيب المعدّات، وإصلاح نظام التدفئة ومجاري الصرف الصحي الخاصة بالمبنى.

في قرية **ليستفين**، انضمّ أكثر من ٧٠ شخصاً إلى الفرق العاملة في مشروع لتجديد مبنى مركز للشباب.

(الصورتان: البرنامج المشترك/ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وبرنامج الإنعاش والتنمية الخاصة بتشيرنوبيل)

وقدّمت الحكومة المحلية، بالتشارك مع جهات راعية محلية، المواد اللازمة، في حين قدّم البرنامج المشترك معدّات المكاتب والمعدّات الرياضية، ثم افتُتح أخيراً مركز الشباب في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥. والمركز يقدّم الآن دورات تعليمية، وخدمات الحاسوب وطباعة النصوص والتصوير النسخي. ومن الممكن أيضاً تنظيم المحاضرات والدورات التدريبية في الموقع بخصوص عدد من الوظائف المتنوّعة. كذلك فإن المركز مجهّز بصالة رياضية وغرف لممارسة الهوايات المختلفة.

المساعدة الإنسانية على مستوى القاعدة الشعبية

الصندوق الياباني لِمَنح المساعدات لمشاريع الأمن البشري على مستوى القاعدة الشعبية برنامج تديره السفارة اليابانية في أوكرانيا. والبرنامج يقدّم معونات مالية صغيرة الحجم (تتراوح المعونة بين ٢٠,٠٠٠ دولار و ٧٥,٠٠٠ دولار) إلى المنظمات غير الحكومية والمرافق الطبية في المناطق المتأثّرة بحادث تشيرنوبيل.

في الفترة من عام ٢٠٠٢ إلى عام ٢٠٠٨، أسهم البرنامج بما مجموعه ٧١٧,٥١٢ دولاراً من أجل ١٦ مشروعاً.

في حزيران/ يونيه ٢٠٠٥، أُنشئت رابطة للمنظمات المجتمعية المحلية، أثناء اجتماع عمومي جرى في القرية. والهدف من الرابطة التنسيقُ بين أنشطة مختلف تلك المنظمات. وقد تقدّمت الرابطة بطلب مِنحة إلى سفارة اليابان من أجل تحسين شبكة الإمداد بالمياه.

وبناءً على طلب مقدَّم من قرية ليستفين، في حزيران/ يونيه ٢٠٠٦، قام منسِّق موفَد من السفارة اليابانية بتقصّي موضوع شبكة الإمداد بالمياه في القرية. وأثناء زيارة التفتيش إلى الموقع، وجد الموظف الرسمي الموفَد أن شبكة الإمداد بالمياه، التي كانت قد بُنيت منذ أكثر من ٣٠ سنة خلَت، لا تفي بالغرض وتعاني مشاكل في النظافة الصحية. وكان أكثر الناس في القرية يستعملون ويشربون مياهاً غير نقيّة تحتوي على رواسب غير قليلة من الحديد. كما ظهر أثناء التفتيش أن القرية تفتقر إلى الموارد المالية اللازمة لإصلاح شبكة الإمداد بالمياه. وبعد تقدير الوضع، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧، قرّرت حكومة اليابان دعم خطة مجتمع القرية المحلي الرامية إلى تحسين ظروف المعيشة والاستعاضة عن شبكة الإمداد بالمياه القديمة بأخرى جديدة. وقدّمت الحكومة اليابانية إلى القرية منحة بمبلغ قدره ٣٢,٦٨٠ دولاراً، في إطار برنامج الصندوق الياباني لِمَنح مساعدات مشاريع الأمن البشري على مستوى القاعدة الشعبية. وشمل المشروع تبديل المضخّات اليدوية في الشوارع، وكذلك أنابيب المياه، ومصافي تنظيف الماء والمضخّات المائية. وقد أُنجز المشروع في خريف العام ٢٠٠٨.

ونفّذت رابطة المنظمات المجتمعية المحلية أيضاً عدّة مشاريع إضافية. وكان من بينها تنظيف الشوارع والمناطق المغمورة بطوفان النهر المحلي، وترميم نصب تذكاري، وتنظيف وترميم آبار المياه، وتنظيف مضخّة محلية، وتجديد نظام التدفئة في المدرسة، وإعادة بناء الكنيسة المحلية، وترميم مقبرة القرية. وبغية تنفيذ تلك المشاريع، تعاونت الرابطة مع عدد من الحكومات المحلية ومع منظمات مانحة. وفي هذه الأيام، باتت قرية ليستفين تُعتبَر نموذجاً يُحتذى بالنسبة إلى القرى المجاورة والمنطقة بأجمعها.

الإنعاش والتنمية

كثيرٌ من الناس الذين أُصيبوا بأضرار مباشرة من جرّاء حادث تشيرنوبيل لا يزالون يتّكلون على المعونة التي تأتيهم من حكومة أوكرانيا وحكومات أجنبية، وكذلك من منظمات دولية.

غير أنهم في السنوات الأخيرة شرعوا في تنظيم أنفسهم بالانضواء في منظمات مجتمعية محلية، وباشروا إعادة بناء مجتمعاتهم المحلية، وإعادة إعمار البُنى التحتية المحلية، مثل شبكات الإمداد بالمياه والمدارس والمستشفيات.

ولا يزال هنالك الكثير ممّا ينبغي القيام به من أجل تحقيق الانتعاش التام من محنة حادث تشيرنوبيل الذي وقع منذ أكثر من عقدين من الزمن. غير أن الناس الذين أُصيبوا بعواقب تلك الكارثة قد شرعوا أخيراً في بناء مستقبلهم، ولم يعودوا قابعين في أماكنهم ينتظرون بسلبية أن تأتي إليهم المعونة الحكومية. وهذا يُعدُّ خطوة حاسمة جديرة بالتحية والترحاب باعتبارها إنجازاً كبيراً حقّقته المجتمعات المحلية التي نُكبت بأشدّ الحوادث المدمّرة خطراً في تاريخ القوى النووية.

يوشيو ماتسوكي خبير استشاري مستقل، عمل بصفة منسِّق لدى برنامج الصندوق الياباني لِمَنح مساعدات مشاريع الأمن البشري على مستوى القاعدة الشعبية، الذي تديره السفارة اليابانية في أوكرانيا.

البريد الإلكتروني: yoshio03@voliacable.com

الدكتور بافلو ف. زاموستيان، رئيس برنامج الإنعاش والتنمية الخاص بتشيرنوبيل، التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، في أوكرانيا، أسهم أيضاً في هذه المقالة.